الواضحة الى «ترتيب» اوضاع البيت الفلسطيني، لم يكن الهدف منها الا جرّ ارجل تلك المنظمات وحملها على الموافقة على «استراتيجية» السعي الى عقد المؤتمر الدولي، باعتباره التحرك «المهم» الذي ينبغي متابعته في المستقبل المنظور. ويجب، بالتالي، ان يكون الموقف الفلسطيني منه «موحّداً»، لمنحه ما يحتاج اليه من «مرونة» و «قوة».

ولقد كان من المؤمل ان تعاند هذه المنظمات، وتشاكس، وترفض الموافقة على هذا التوجه، لمنع انزلاق آخر قد تكون نتائجه خطيرة؛ ولكنها لم تفلح في ذلك، أيضاً. بل انها، كالعادة، خيّبت املنا وأخطأت مرة اخرى، بقبولها ما كان ينبغي ان ترفضه، ورفضها ما كان ينبغي ان تقبله. فالمؤتمر الدولي المنشود ليس «مهماً»، والفائدة المتوخاة منه مشكوك في جدواها، وبالتالي لا ضرورة لأن يكون الموقف منه «موحّداً»، ولا حاجة الى «مرونة» او خلافها. بل ان هذا التوجه، بأسره، يبدو خطأ في خطأ؛ اذ يخشى ان يتحول هذا المؤتمر الى كارثة، او يمهّد الطريق لوقوعها.

وحتى نضع النقاط على الحروف، لا بد من التذكير باحدى بديهيات قواعد الصراعات واحكامها، وهي ان حل الازمات الدولية، او تعقيدها، يتم، أولاً وقبل كل شيء آخر، على ارضية ميزان القوى الذي يشكل خلفية لها. وميزان القوى العربي (الفلسطيني) ـ الاسرائيلي، في هذا الزمن العربي الرديء، والزمن الفلسطيني الاردأ، وكما هو واضح ومعروف للجميع وملموس جيداً، مختل بشكل فاضح، ومعيب، لصالح العدو الصهيوني ـ الاميركي، الذي يستطيع، بالتالي، التحكم في معظم ادوار «اللعبة» وفق هواه، بشكل او بآخر. وعلى هذه الارضية، يبدو ان ذلك المؤتمر، على الرغم من الحماس له والعمل بجد ونشاط من اجله من قبل الفلسطينيين واصدقائهم، قد لا يُعقد ابداً؛ وان عُقد، فقد لا يؤدي الى اي فائدة؛ وان نجمت عنه فائدة ما، فقد تأتي متأخرة وبعد فوات الاوان. والارجح هو ان يتحول هذا المؤتمر الى «دويخة» السنوات المقبلة وملهاتها، فتُسيَّر من اجله الوفود، وتعقد المشاورات والمداولات والندوات، وتُقدم، ايضاً، التنازلات، ويضيع الوقت دون طائل. وفي هذا الصدد، لنا في مؤتمر جنيف المشهور، الذي شُغل الجميع به خلال فترة طويلة من السبعينات، ثم انتهى الى لا شيء، خير مثال.

وما اوردناه حتى هنا يُفترض ان يتم اذا سارت الامور على الوجه الاحسن. غير انه من الممكن ان يحدث عكس هذا تماماً، بل ان الارجح هو حصول مثل ذلك، فينقلب المؤتمر، او السير في ركبه، وبالاً على صحبه، ويجرّ عواقب وخيمة. ففي التاريخ العربي المشرقي المعاصر، منذ بداية هذا القرن على الاقل، عِبَر كثيرة من «مؤتمرات» مماثلة، انتهت باضرار فادحة لحقت بالقضية العربية عامة، حيث أُجريت في ظل اختلال ميزان القوى لصالح الخصوم والاعداء. ففي اعقاب الحرب العالمية الاولى، مثلاً، وفيما كان العرب يتحدثون عن الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير، الخ، عقد المستعمرون الفرنسيون والبريطانيون «مؤتمرات» عدة فيما بينهم اسفرت عن تقسيم المشرق العربي الى مناطق نفوذ مختلفة، أُخضعت لسيطرتهم، ثم تحولت الى كيانات مستقلة متفرقة، اضاعت كثيراً من وقتها وجهدها في مقارعة بعضها البعض. وعشية نشوب الحرب العالمية الثانية، عُقد، سنة ١٩٣٩، مؤتمر يهودي ـ عربي في سانت جايمس في لندن، اسفر عن وأد الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، وانعكاساتها رسمياً. وفي سنة ١٩٤٧، عُقد «مؤتمر» كبير في الامم المتحدة اسفر عن قرار بتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية على جزء منها. وخلال سنة ١٩٤٩، عُقدت «مؤتمرات» أخرى بين اسرائيل والدول العربية المجاورة لفلسطين اسفرت عن توقيع اتفاقيات هدنة منفردة، مع كل منها، فيما بدا انه خطوة اولى على طريق الاعتراف باسرائيل. وفي الوقت عينه، عقدت، أيضاً، «مؤتمرات» عدة، في اطار لجنة التوفيق لفلسطين، المنبثقة عن الامم المتحدة، تعهدت اسرائيل في نهايتها حتى باحترام حق اللاجئين في العودة الى ديارهم، فقُبلت في اعقاب ذلك عضواً في الامم المتحدة ـ وتنكرت